المبحث الثالث
ملخص لمذكرات همفر

يبدأ همفر مذكراته بهذه العبارة[١]: «كانت دولة بريطانيا العظمى تفكر منذ وقت طويل حول إبقاء الإمبراطورية وسيعة كبيرة، كما هي عليها الآن، من إشراق الشمس على بحارها حين تشرق، وغروب الشمس في بحارها حين تغرب، فإن دولتنا كانت صغيرة بالنسبة إلى المستعمرات الكثيرة التي كنا نُسيطر عليها في الهند وفي الصين وفي الشرق الأوسط وغيرها. صحيح إنّا لم نكن نسيطر سيطرة فعلية على أجزاء كبيرة من هذه البلاد؛ لأنها كانت بيد أهاليها، إلا أن سياستنا فيها كانت سياسة ناجحة وفعالة، وكانت في طريق سقوطها بأيدينا كلية، فكان اللازم علينا أن نفكر مرتين:

١- مرة لأجل إبقاء السيطرة على ما تم السيطرة عليه فعلًا.

٢- ومرة لأجل ضم ما لم تتم السيطرة عليه فعلًا إلى ممتلكاتنا ومستعمراتنا»، ثم يُخبر عن مهمته وما يُقلق حكومته، بقوله[٢]:

«وعُهد إليّ بمهمة (شركة الهند الشرقية) التي كانت مهمتها في الظاهر تجارية بحتة، وفي الباطن تعزيز سبل السيطرة على الهند، وعلى طرقها الموصلة إلى هذه الأراضي الشاسعة شبه القارة.. لكن الذي كان يقلق بالنا هي البلاد الإسلامية.. إن الإسلام كان ذات يوم دين حياة وسيطرة.. لم

(١) (ص ٥).
(٢) (ص ٦ - ٩).

نكن نأمن من تحرك الوعي في نفوس (آل عثمان) و (حكام فارس) بما يوجب فشل خططنا الرامية إلى السيطرة.. كنا شديدي القلق من علماء المسلمين، فعلماء الأزهر، وعلماء العراق، وعلماء فارس كانوا أمنع سدًا أمام آمالنا».

يتابع[(١)]:

«أوفدتني وزارة المستعمرات عام ١٧١٠م إلى كل من مصر، والعراق، وطهران، والحجاز، والآستانة، لأجمع المعلومات الكافية التي تعزز سبل تمزيقنا للمسلمين، ونشر السيطرة على بلاد الإسلام، وبُعث في نفس الوقت تسعة آخرون من خيرة الموظفين لدى الوزارة ممن تكتمل فيهم الحيوية والنشاط والتحمس لسيطرة الحكومة إلى سائر الأجزاء للإمبراطورية، وسائر بلاد المسلمين، وقد زودتنا الوزارة بالمال الكافي، والمعلومات اللازمة، والخرائط الممكنة، وأسماء الحكام والعلماء ورؤساء القبائل».

«فأبحرت أنا ميممًا وجهة الأستانة مركز الخلافة الإسلامية»[(٢)].

«وبعد سفرة مضنية وصلت إلى آستانة وسميت نفسي (محمدًا)، وأخذت أحضر المسجد، مكان اجتماع المسلمين لعبادتهم»[(٣)].

«وقد التقيت هناك بعالم طاعن في السن اسمه (أحمد أفندم) وكان من طيب النفس ورحابة الصدر وصفاء الضمير وحب الخير». وقال لهمفر

---

(١) (ص ١٢).

(٢) (ص ١٢).

(٣) (ص ١٣).

المتنكر في زي مسلم:

«إن الواجب أن نحترمك لعدة أسباب:

١- لأنك مسلم والمسلمون إخوة.

٢- ولأنك ضيف، وقد قال رسول الله ﷺ: «**أكرموا الضيف**».

٣- ولأنك طالب علم، والإسلام يؤكد على إكرام طالب العلم.

٤- ولأنك تريد الكسب، وقد ورد نص بأنه الكاسب حبيب الله.

وقد أُعجبت أنا بهذه الأمور أيما إعجاب، وقلت في نفسي يا ليت كانت المسيحية تعي مثل هذه الحقائق النيرة»[(١)].

«لقد كنت أيام إقامتي في الآستانة أنام عند خادم المسجد لقاء ما أعطيه من المال، وكان إنسانًا عصبي المزاج... أما سائر الأيام فقد كنت أذهب إلى نجار هناك اشتغل عنده لقاء أجر زهيد، كان يدفعه لي أسبوعيًا، وحيث كان عملي في فترة الصباح فقط، فقد كان يجري لي نصف أجور سائر عماله، وكان اسم النجار (خالد)... وكان إذا خلى بي طلب مني أن يلوط بي! وأظن أنه كان يعمل ذلك مع بعض آخر من عماله، حيث كان أحد العاملين شابًا جميلًا من سلانيك، وكان يهوديًا قد أسلم، فكان يصحبه معه أحيانًا إلى خلف المحل الذي كان مخزنًا لأخشابه، ويتظاهران أنهما يذهبان هناك لإصلاح المخزن، لكني كنت أعلم أنهما يذهبان لقضاء الحاجة»[(٢)].

---

(١) (ص ١٣ - ١٥).

(٢) (ص ١٦ - ١٧).

«بعد إتمام سنتين من مكثي في الآستانة استأذنت للعودة إلى وطني.. وقد جرت العادة - طيلة مكثي في الآستانة - أن أُقدم كل شهر تقريرًا عن حالي وعن التطورات وعما شاهدته إلى وزارة المستعمرات»[١].

وبعد عودة همفر من مهمته بالأستانة، قال له سكرتير وزارة المستعمرات البريطانية:

«إن مهمتك يا همفر في السفرة القادمة أمران:

١- أن تجد نقطة الضعف عند المسلمين، والتي نتمكن بها من أن ندخل في جسمهم، ونبدد أوصالهم، فإن أساس النجاح على العدو هو هذا.

٢- أن تكون أنت المباشر لهذا الأمر إذا ما وجدت نقطة الضعف، فإن قدرت على المهمة فسوف أطمئن بأنك أنجح العملاء، وستستحق وسام الوزارة»[٢].

«بقيت في لندن مدة ستة أشهر وتزوجتُ بابنة عمي.. وإذا بالأوامر الصارمة تصدر من الوزارة في أن أتوجه إلى إقليم العراق، البلد العربي الذي استعمرته الخلافة منذ زمن طويل»[٣].

«وبعد ستة أشهر وجدت نفسي في البصرة من العراق»[٤].

يتذكر همفر مقولة سكرتير وزارة المستعمرات له: «مهمتك في هذه السفرة أن تتعرف على هذه النزاعات بين المسلمين، وتعرف البركان

---

(١) (ص ١٨).
(٢) (ص ٢١ - ٢٢).
(٣) (ص ٢٢).
(٤) (ص ٢٣).

المستعد للانفجار منها، وتزود الوزارة بالمعلومات الدقيقة حول ذلك، وإن تمكنت من تفجير النزاع كنت في قمة الخدمة لبريطانيا العظمى»[١].

«لما وصلت إلى البصرة ذهبت لتوي إلى أحد المساجد، وكان المسجد لعالم من أهل السنة عربي الأصل واسمه الشيخ عمر الطائي فتعرفت عليه وتلاطفت معه[٢]». إلا أن همفر لم يرتح معه.

«وعلى كلٍ فلم أجد بدًا من أن أنسحب عن مسجد الشيخ عمر إلى خانٍ كان محل الغرباء والمسافرين، وقد استأجرت غرفة في الخان، وكان صاحب الخان رجلًا أحمق يسلب راحتي كل صباح، فقد كان يأتي أول الفجر إلى باب الغرفة، ويطرقه بعنف لأقوم لصلاح الصبح، ثم يأمرني بقراءة القرآن إلى طلوع الشمس، ولما قلت له إن قراءة القرآن ليست واجبة، فلماذا هذا الإصرار؟ قال: بأن من ينام في هذا الوقت يجلب الفقر والنكبة للخان، ولأهل الخان، وحيث لم يكن لي بد من إجابته إذ هددني بالطرد إن لم أعمل بما يقول، صرت مجبورًا على أن أصلي أول الآذان، ثم أتلو القرآن أكثر من ساعة كل يوم»[٣]. إلا أن همفر أيضًا لم يرتح عنده - أيضًا -.

«وأخيرًا رضخت لأمر الأفندم، ووجدت مكانًا عند نجار تعاقدت معه أن أعمل كعامل عنده بأجرة زهيدة، ويكون أكلي ونومي أيضًا عنده.. وكان رجلًا شهمًا شريفًا، عاملني كأحد أولاده، وكان اسمه (عبدالرضا)، وكان شيعيًا فارسيًا من أهالي خراسان»[٤].

---

(١) (ص ٢٦).

(٢) (ص ٢٧).

(٣) (ص ٢٨).

(٤) (ص ٢٩ - ٣٠).

«تعرفت على شاب كان يتردد على هذا الدكان يعرف اللغات الثلاث: التركية الفارسية والعربية، كان في زي طلبة العلوم الدينية، وكان يسمى بـ (محمد بن عبدالوهاب)، وكان شابًا طموحًا للغاية عصبي المزاج، ناقمًا على الحكومة العثمانية، أما حكومة فارس فلم يكن له شأن بها، وكان سبب صداقته مع صاحب المحل (عبدالرضا) أن الاثنين كانا ناقمَين على الخليفة، وإني لا أعلم من أين هذا الشاب يعرف اللغة الفارسية، مع أنه كان من أهل السنة، وكيف تصادق مع (عبدالرضا الشيعي)؟ إلا أن كلا الأمرين لم يكن غريبًا، ففي البصرة يلتقي السني بالشيعي، وكأنهما إخوة، كما يعرف كثير من القاطنين في البصرة اللغتين الفارسية والعربية، وأن كثيرًا منهم يعرف أيضًا اللغة التركية.

كان محمد عبدالوهاب شابًا متحررًا بكل معنى الكلمة، لا يتعصب ضد الشيعة- كما كان هو الحال عند غالب أهل السنة، حيث يتعصبون ضد الشيعة، حتى أن جماعة من مشايخ أهل السنة يُكفّرون الشيعة ويقولون إنهم ليسوا مسلمين- كما أنه لم يكن يرى أي وزن لأتباع المذاهب الأربعة المتداولة بين أهل السنة، ويقول: إنها ما أنزل الله بها من سلطان»[(١)].

«وكان الشاب الطموح محمد يقلد فهم نفسه في فهم القرآن والسنة، ويضرب بآراء المشايخ، لا مشايخ زمانه والمذاهب الأربعة فحسب، بل بآراء أبي بكر وعمر أيضًا عرض الحائط إذا فهم هو من الكتاب على خلاف ما فهموه»[(٢)].

---

(١) (ص ٣٠ - ٣١).

(٢) (ص ٣٢).

ثم نقل همفر[١] حوارًا جرى بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأحد علماء الشيعة عن صحة مذهب الشيعة.

ثم قال[٢]:

«لقد وجدت في محمد عبدالوهاب ضالتي المنشودة، فإن تحرره، وطموحه، وتبرمه من مشايخ عصره، ورأيه المستقل الذي لا يهتم حتى بالخلفاء الأربعة أمام ما يفهمه هو من القرآن والسنة، كان أكبر نقاط الضعف التي كنت أتمكن أن أتسلل منها إلى نفسه، وأين هذا الشاب المغرور من ذلك الشيخ التركي الذي درست عنده في تركيا، فإنه كان مثال السلف، كالجبل لا يحركه شيء، إنه كان إذا أراد أن يأتي باسم أبي حنيفة - وكان الشيخ حنفي المذهب- قام وتوضأ ثم ذكر اسم أبي حنيفة، وإذا أراد أن يأخذ كتاب البخاري - وهو كتاب عظيم عند أهل السنة يقدسونه أيما تقديس - قام وتوضأ ثم أخذ الكتاب.

أما الشيخ محمد الوهاب فكان يزدري بأبي حنيفة أيما ازدراء، وكان يقول عن نفسه: «إنني أكثر فهمًا من أبي حنيفة»، وكان يقول: «إن نصف كتاب البخاري باطل»!

لقد عقدت بيني وبين محمد أقوى الصلات والروابط، وكنت أنفخ فيه باستمرار وأبيّن له أنه أكثر موهبة من علي وعمر! وأن الرسول لو كان حاضرًا لاختارك خليفة له دونهما، وكنت أقول له دائمًا: «آمل من تجديد

---

(١) (ص ٣٣ - ٣٤).

(٢) (ص ٣٤ - ٣٥).

الإسلام على يدك، فإنك المنقذ الوحيد الذي يُرجى به انتشال الإسلام من هذه السقطة».

وقد قررت مع محمد أن نناقش في تفسير القرآن على ضوء أفكارنا الخاصة، لا على ضوء فهم الصحابة والمذاهب والمشايخ، وكنا نقرأ القرآن، ونتكلم عن نقاط منها، كنت أقصد من ورائها إيقاع محمد في الفخ، وكان هو يسترسل في قبول آرائي؛ ليُظهر نفسه بمظهر المتحرر، وليجلب ثقتي أكثر فأكثر.

ثم ذكر[١] بعض محاوراته معه حول مسائل شرعية، منها: «زواج المتعة»! ثم قال[٢]:

«ولما وجدت سكوته دليل الاقتناع، وقد أثرت فيه الغريزة الجنسية - ولم تكن له إذ ذاك زوجة -، قلت له: ألا نتحرر أنا وأنت ونتخذ متعة نستمتع بها؟ فهز رأسه علامة الرضا، وقد اغتنمت أنا هذا الرضا أكبر اغتنام، وقررت موعدًا لآتي إليه بامرأة ليتمتع بها، وكان همي أن أكسر خوفه من مخالفة الناس، لكنه اشترط عليّ أن يكون الأمر سرًا بيني وبينه، وأن لا أخبر المرأة باسمه، فذهبت فورًا إلى بعض النساء المسيحيات اللاتي كنّ مجندات من قبل وزارة المستعمرات لإفساد الشباب المسلم، ونقلت لها كامل القصة، وجعلت لها اسم (صفية)، وفي يوم الموعد ذهبت بالشيخ محمد إلى دارها، وكانت الدار خالية إلا منها، فقرأنا أنا والشيخ صيغة العقد لمدة أسبوع، وأمهرها الشيخ نقدًا ذهبيًا، فأخذت أنا من

---

(١) (ص ٣٥ - ٣٦).

(٢) (ص ٣٦).

الخارج و صفية من الداخل، نتراوح على توجيه الشيخ محمد عبدالوهاب.

وبعد ما أخذت صفية من محمد كل مأخذ، وتذوق محمد حلاوة مخالفة أوامر الشريعة تحت غطاء الاجتهاد والاستقلال في الرأي والحرية، وفي اليوم الثالث من المتعة أجريت مع محمد حوارًا طويلًا عن عدم تحريم الخمر، وكلما استدل بالآيات القرآنية والأحاديث زيفتها.. - إلى أن قال[1] -: أخذ يسمعني محمد بكل قلبه، ثم تنهد وقال: بل ثبت في بعض الأخبار أن عمر كان يكسر الخمر بالماء ويشربها، ويقول إن سكرها حرام، لا إذا لم تكن تُسكر، ثم أردف الشيخ قائلًا: وكان عمر صحيح الفهم في ذلك؛ لأن القرآن يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾، فإذا لم تُسكر الخمر لم تفعل هذه الأمور التي ذُكرت في الآية، وعليه فلا نهي عن الخمر إذا لم تكن مسكرة.

أخبرتُ صفية بما جرى، وأكدتُ عليها أن يُسقى الشيخ في هذه المرة خمرة مغلظة؛ ففعلت، وأخبرتني بعد ذلك أن الشيخ شرب حتى الثمالة، وعربد، وجامعها عدة مرات في تلك الليلة، وهكذا استوليت أنا وصفية على الشيخ استيلاءً كاملًا.

ويا لها من روعة تلك الكلمات الذهبية التي قالها لي وزير المستعمرات حين ودعته: «إنا استرجعنا أسبانيا من الكفار (يقصد المسلمين) بالخمر والبغاء، فلنحاول أن نسترجع سائر بلادنا بهاتين القوتين العظيمتين».

ثم ذكر همفر[2] أنه تناقش مع الشيخ عن فرضية الصوم والصلاة؛ حتى

---

(١) (ص ٣٧ - ٣٨).

(٢) (ص ٣٨ - ٤٠).

أقنعه بعدم فرضيتهما؛ فاقتنع! ثم قال:

«وهكذا أخذت أسحب رداء الإيمان عن عاتق الشيخ شيئًا فشيئًا، وأردت ذات مرة أن أناقش حول الرسول، لكنه صمد في وجهي صمودًا كبيرًا، وقال لي: إن تكلمت بعد ذلك حول هذا الموضوع قطعت علاقتي بك، وخشيت أن ينهار كل ما بنيته، من أجل ذلك أحجمت عن الكلام حول الرسول.

لكن أخذت في إذكاء روحه في أن يكوّن لنفسه طريقًا ثالثًا غير السنة وغير الشيعة، وكان يستجيب لهذا الإيحاء كل استجابة؛ لأنه كان يملأ غروره وتحرره.

وبفضل صفية التي دامت علاقتها معه بعد الأسبوع أيضًا في متعات جديدة، تمكنا في الأخذ بقيادة الشيخ كاملًا.

وذات مرة قلت للشيخ: هل صحيح أن النبي آخى بين أصحابه؟ قال: نعم. قلت: هل أحكام الإسلام وقتية أم دائمة؟ قال: بل دائمة؛ لأن الرسول يقول: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»، قلت: إذن فلنتآخي أنا وأنت، فتواخينا، ومنذ ذلك الحين كنت أتبعه في كل سفر وحضر، وكنت أهتم لأن تأتي الشجرة التي غرستها ثمارها التي صرفت لأجلها أثمن أوقات شبابي.

وكنت أكتب النتائج إلى الوزارة كل شهر مرة، كما كانت عادتي منذ أن خرجت من لندن- وكان الجواب يأتيني بالتشجيع الكافي، فكنت أنا ومحمد نسير في الطريق الذي رسمناه بخطى سريعة، ولم أكن أفارقه لا في السفر ولا في الحضر، وكانت مهمتي أن أربي فيه روح الاستقلال والحرية

وحالة التشكيك، وكنت أبشره دائمًا بمستقبل زاهر، وأمدح فيه روحه الوقادة، ونفسه النقادة، ولفقت له ذات مرة حلمًا، وقلت له: إني رأيت البارحة في المنام رسول الله- ووصفته بما كنت سمعته من خطباء المنابر - جالسًا على كرسي، وحوله جماعة من العلماء، لم أعرف أحدًا منهم، وإذا بي أراك قد دخلت ووجهك يُشرق نورًا، فلما وصلت إلى الرسول ﷺ، قام إجلالًا لك، وقبّل بين عينيك، وقال لك: يا محمد، أنت سميّي ووارث علمي، والقائم مقامي في إدارة شؤون الدين والدنيا. فقلتَ أنت: يا رسول الله إني أخاف أن أُظهر علمي على الناس؟ قال رسول الله ﷺ لك: : لا تخف إنك أنت الأعلى!

فلما سمع محمد بالمنام كاد أن يطير فرحًا، وسألني مكررًا: هل أنت صادق في رؤياك؟ وكلما سأل أجبته بالإيجاب، حتى اطمئن، وأظن أنه صمم من ذلك اليوم على إظهار أمره».

«في هذه الأيام جاءتني الأوامر من لندن على أن أتوجه إلى (كربلاء) و (النجف)، مهوى قلوب المسلمين الشيعة ومركز علمهم وروحانيتهم، ولهذين البلدين قصة طويلة»[١].

«ومن الحلة ذهبت إلى النجف في زي تاجر من تجار آذربيجان، وائتلفت برجال الدين، وأخذت أراودهم، وحضرت مجالس دروسهم، وأعجبت بهم أيما إعجاب لصفاء روحهم، وغزارة علمهم، وشدة تقواهم، لكن وجدتهم قد مر عليهم الزمن، ولا يفكرون في تجديد أمرهم.

---

(١) (ص ٤١).

١- فقد كانوا على شدة عدائهم للسلطة في تركيا.. لا يُفكرون في منازلتها وفي التخلص منها.

٢- كما أنهم كانوا قد حصروا أنفسهم في علوم الدين، أمثال قساوستنا في عصر الجمود، وقد تركوا علوم الدنيا إلا بمقدار قليل لا ينفع.

٣- وكذلك وجدتهم لا يفكرون في ما يجري حولهم في العالم.

وقد قلتُ في نفسي مساكين هؤلاء فإنهم في سبات، حيث الدنيا في يقظة، وسيأتي يوم يجرفهم السيل، وقد حاولت مكررًا استنهاضهم لمحاربة الخلافة، فلم أجد فيهم أذنًا صاغية، وكان بعضهم يسخر مني وكأني أقول له اهدم الكون، فقد كانوا ينظرون إلى الخلافة كأنها مارد لا يمكن أن يقصر إلا إذا ظهر ولي الأمر عجل الله فرجه»[١].

«بقيت في كربلاء والنجف مدة أربعة أشهر. وقد تمرضت في النجف مرضًا حادًا. وبعد أن أبللت من المرض؛ ذهبت إلى بغداد، وهناك كتبت تقريرًا مفصلًا عن مشاهداتي في النجف وكربلاء والحلة وبغداد والطريق، في تقرير مسهب، وسلمت التقرير إلى ممثل الوزارة في بغداد»[٢].

«وقد كنت أيام مغادرتي البصرة إلى كربلاء والنجف قلقًا أشد القلق على مصير الشيخ محمد عبدالوهاب، حيث كنت لا آمن الانحراف عن الطريقة التي رسمتها له، فإنه كان شديد التلون، عصبي المزاج، فكنت أخشى أن تنهار كل آمالي التي بنيتها عليه»[٣].

---

(١) (ص ٤٤).

(٢) (ص ٤٧ - ٤٨).

(٣) (ص ٤٩).

«بعد مدة من مكوثي في بغداد؛ أتتني الأوامر بضرورة التوجه إلى لندن فورًا، فتوجهت إليها، وهناك اجتمع بي السكرتير وبعض أعضاء الوزارة، وأخبرتهم بمشاهداتي وما عملته في سفرتي الطويلة، ففرحوا بمعلوماتي عن العراق أشد الفرح... وقد أبدى الوزير ارتياحه الكبير من السيطرة على محمد، وقال: إنه ضالة الوزارة، وأكد عليّ مكررًا بأن أعاهده بكل أنواع المعاهدة، وقال: إنك لو لم تحصل في كل أتعابك إلا على الشيخ، كان جديرًا بكل تلكم الأتعاب»(١).

«ثم منحوا لي إجازة عشرة أيام لكي أنصرف إلى أهلي، وخرجت من الوزارة ميممًا نحو أهلي.. راجعت الوزارة لأتخذ الأوامر بشأن المستقبل»(٢).

«قال لي السكرتير: لقد أمرني الوزير شخصيًا، كما خولتني اللجنة الخاصة بشؤون المستعمرات أن أطلعك على سرين هامين جدًا، وذلك لكي تستفيد منهما في المستقبل»(٣).

أما الأول؛ فهو اختيار الوزارة لخمسة بدلاء، يتقمصون هذه الشخصيات:

١- السلطان العثماني.

٢- شيخ الإسلام في الدولة العثمانية.

---

(١) (ص ٥١).
(٢) (ص ٥٣).
(٣) (ص ٥٤).

٣- ملك فارس.

٤- عالم البلاط الشيعي.

٥- أحد مراجع التقليد الشيعة.

وذلك ليعرفوا طريقة تفكير كلٍ منهم، مع مجموعة من الأفكار التي ينبغي بثها بين المسلمين[١].

«ولم يكن السر الثاني إلا وثيقة في خمسين صفحة، تتعرض للخطط الرامية إلى تحطيم الإسلام والمسلمين خلال قرن واحد - ثم ذكر نماذج منها -»[٢].

«شكرت السكرتير على تزويده لي بصورة من هذه الوثيقة وبقيت في لندن مدة شهر آخر، حتى أتتنا أوامر الوزارة بالتوجه إلى العراق مرة أخرى، لتكميل الشوط مع محمد الوهاب، وقد أمرني السكرتير بأن لا أفرط في حقه مقدار ذرة، حيث قال: إنه حصل من مختلف التقارير الواردة إليه من العملاء أن الشيخ أفضل شخص يمكن الاعتماد عليه ليكون مطية لمآرب الوزارة.

ثم قال السكرتير: تكلم مع الشيخ بصراحة، وقال: إن عميلنا في أصفهان تكلم معه بصراحة، وقبل الشيخ العرض، على شرط أن نحفظه من الحكومات والعلماء الذين لابد وأن يهاجموه بكافة السبل، حينما يبدي آراءه وأفكاره، وأن يزوده بالمال الكافي والسلاح إذا اقتضى الأمر ذلك،

---

(١) (ص ٥٤ - ٧٥).

(٢) (ص ٧٥ - ٨٠).

وأن نجعل له إمارة ولو صغيرة في أطراف بلاده نجد، وقد قبلت الوزرة كل ذلك.

ولقد كدت أخرج عن جلدي من شدة الفرح بهذا النبأ، ثم قلت للسكرتير: إذن فما هو العمل الآن؟ وبماذا أكلف الشيخ، ومن أين أبدأ؟ قال السكرتير: لقد وضعت الوزارة خطة دقيقة لأن ينفذها الشيخ، وهي:

١- تكفير كل المسلمين، وإباحة قتلهم، وسلب أموالهم، وهتك أعراضهم، وبيعهم في أسواق النخاسة.

٢- هدم الكعبة باسم أنها آثار وثنية إن أمكن، ومنع الناس عن الحج، وإغراء القبائل بسلب الحجاج وقتلهم.

٣- السعي لخلع طاعة الخليفة، والإغراء لمحاربته، وتجهيز الجيوش لذلك، ومن اللازم أيضًا محاربة أشراف الحجاز بكل الوسائل الممكنة، والتقليل من نفوذهم.

٤- هدم القباب والأضرحة والأماكن المقدسة عند المسلمين في مكة والمدينة، وسائر البلاد التي يمكنه ذلك فيها، باسم أنها وثنية وشرك، والاستهانة بشخصية النبي محمد وخلفائه ورجال الإسلام بما يتيسر.

٥- نشر الفوضى والإرهاب في البلاد حسب ما يمكنه ذلك.

٦- نشر قرآن فيه التعديل الذي ثبت في الأحاديث من زيادة ونقيصة»[١].

ثم يختم همفر مذكراته بقوله[٢]: «بعد أيام استأذنت الوزير والسكرتير،

---

(١) (ص ٨٠ - ٨٢).

(٢) (ص ٨٢ - ٨٥).

وودعت الأهل والأصدقاء. . . وخرجت قاصدًا نحو البصرة، وبعد سفرة مضنية، وصلت إليها ليلًا، وذهبت إلى دار عبدالرضا، وكان نائمًا، ولما رآني رحب بي واستقبلني استقبالًا حارًا، ونمت هناك حتى الصباح، وقال لي: إن الشيخ محمد رجع إلى البصرة، ثم سافر وأودع عنده كتابًا موجهًا إليك، وفي الصباح قرأت الكتاب، وإذا به يخبرني فيه إنه سافر إلى نجد، وقد ذكر عنوان محله في نجد، فسافرت في الصباح ميممًا وجهة نجد، ووصلتها بعد مشقة بالغة، وجدت الشيخ محمد في داره، وقد ظهرت عليه آثار الضعف، فلم أبح له بشيء، ثم تبين لي فيما بعد أنه تزوج وأنه يُنهك قواه مع زوجته، فنصحته بالإقلاع، فسمع كلامي، وقد صار القرار أن أجعل نفسي عبدًا له، قد اشتراه من السوق، وأن العبد الآن جاء من السفر، وهكذا كان.

وبقيت عنده سنتين، وهيأنا الترتيب اللازم لإظهار الدعوة، وفي سنة (١١٤٣) هجرية قويت عزيمته، وقد جمع أنصارًا لا بأس بهم، فأظهر الدعوة بكلمات مبهمة، وألفاظ مجملة؛ لأخص خواصه.

وكلما أظهر الدعوة أكثر صار أعداؤه أكثر، وأحيانًا كان يريد التراجع من ضغط بعض الإشاعات ضده، لكني كنت أشد من عزيمته، وأقول له: إن محمدًا النبي رأى أكثر من ذلك، وإن هذا هو طريق المجد، وإن كل مصلح لابد وأن يتلقى العنت والإرهاق.

لقد وعدني الشيخ بتنفيذ كل الخطة السداسية، إلا أنه قال: إنه لا يتمكن في الحال الحاضر إلا على الإجهار ببعضها، وهكذا كان، وقد استبعد الشيخ أن يقدر على هدم الكعبة عند الاستيلاء عليها، كما لم يبح عند

الناس بأنها وثنية، وكذلك استبعد قدرته على صياغة قرآن جديد، وكان أشد خوفه من السلطة في مكة وفي الآستانة، وكان يقول: إذا أظهرنا هذين الأمرين لا بد وأن يُجهز إلينا جيوش لا قِبل لنا بها، وقبلت منه العذر؛ لأن الأجواء لم تكن مهيأة كما قال الشيخ.

بعد سنوات من العمل؛ تمكنت الوزارة من جلب (محمد بن سعود) إلى جانبنا، فأرسلوا إليّ رسولًا يبين لي ذلك، ويُظهر وجوب التعاون بين المحمّدَين، فمن محمد الوهاب الدين، ومن محمد السعود السلطة، ليستولوا على قلوب الناس وأجسادهم، فإن التاريخ قد أثبت أن الحكومات الدينية أكثر دوامًا، وأشد نفوذًا، وأرهب جانبًا.

وهكذا كان؛ وبذلك قوي جانبنا قوة كبيرة، وقد اتخذنا (الدرعية) عاصمة للحكم والدين الجديد، وكانت الوزارة تزود الحكومة الجديدة سرًا بالمال الكافي، كما اشترت الحكومة الجديدة في الظاهر عدة من العبيد كانوا من خيرة ضباط الوزارة الذين دُربوا على اللغة العربية والحروب الصحراوية، فكنت أنا وإياهم - وعددهم أحد عشر - نتعاون بوضع الخطط اللازمة، وكان المحمَّدان يسيران على ما نضع لهما من الخطط، وكثيرًا ما نتناقش الأمر مناقشة موضوعية، إذا لم يكن أمر خاص من الوزارة.

وقد تزوجنا جميعًا من بنات العشائر، وقد أُعجبنا بإخلاص المرأة المسلمة لزوجها، وبذلك اشتبكت أواصر الصلة بيننا وبين العشائر أكثر فأكثر، والأمر الآن يسير من حسن إلى أحسن، والمركزية تتقوى يومًا بعد يوم، وإذا لم تقع كارثة مفاجئة؛ فقد بُذرت البذرة الصالحة لأن تنمو وتنمو، حتى تؤتي الثمار المطلوبة».